مجلة عصور الجديدة– فصلية صنف ج- المجلد 10 – العدد 1 (مارس) 1441هـ/2020م
ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600–6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مظاهر الهيمنة الذكورية على المرأة في المجتمع الجزائري الحديث في ضوء الكتابات الكولونيالية- بداية الاحتلال.

Manifestations of male domination over women in modern Algerian society in the light of colonial writing- the beginning of occupation.

اسم ولقب المؤلف المرسل: شهرزاد واضح- Ouadhah Chahrazed صص370- 383
الدرجة ومؤسسة الانتماء: طالبة دكتوراه في التاريخ الاجتماعي للجزائر- جامعة محمد لمين دباغين سطيف2 /البريد الإلكتروني: chahraouadah92@gmail.com مخبر التراث والدّراسات الأثرية

اسم ولقب المرسل الثاني: د. نور الدين كوسة- Koussa Noureddine
الدرجة ومؤسسة الانتماء: أستاذ محاضر أ- جامعة محمد لمين دباغين سطيف-2
البريد الإلكتروني: Koussanoureddine@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/31 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/02/12

الملخص: حاولنا في هذا المقال التطرق لبعض قضايا المرأة الجزائرية، التي ظلت لفترات طويلة مهمشة، لذلك ارتأينا عرض بعض مظاهر الهيمنة الذكورية على المرأة في جزائر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث ميزت هذه الفترة التاريخية تغييرات جذرية على الصعيد السياسي والاقتصادي، وصاحبتها تغيرات اجتماعية خاصة في ظل نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، هذا ما أثر على البنى الاجتماعية والنسق الثقافي للمجتمع الجزائري، حيث اندثرت بعض الظواهر، وتأصلت أخرى، وقضايا المرأة في ظل المنظومة الذكورية أخذت حيزا كبيرا من اهتمام الباحثين وبخاصة الفرنسيين، الذين كانوا يهدفون لاختراق المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: المرأة الجزائرية، الهيمنة الذكورية، الفترة الحديثة، المجتمع الجزائري، الكتابات الكولونيالية، الأعراف، العادات، التقاليد، السياسة الاستعمارية، النسق السوسيوثقافي.

Abstract: *In this paper, we tried to address some of the Algerian women issues that have long been marginalized. We addressed some of the male domination aspects in Algeria of the nineteenth and early twentieth century. This historic period has been marked by several dramatic transformations in the political and*

PDF Creator Trial

economic fields and was also accompanied by special social fluctuations under the end of the Ottoman rule and the beginning of the French occupation.

This condition obviously had its effects on the social structures and cultural contexts of the society. Some phenomena have disappeared and others have become more amalgamated. The Algerian women's issues in that existent masculine system have taken a great deal of interest from the French researchers who were aiming to penetrate society. The main objective of this paper is to survey some aspects of this hegemony and how it was dealt with by both Algerian and cosmopolitan researchers and historians.

Keyword: Algerian women, masculine system, modern period, Algerian society, colonial writing, customs, traditions, colonial policy, the socio-cultural theme.

مقدمة: لم تنل قضايا المرأة الجزائرية حقها من الدراسة نظرا لإسهاب الكتابات التاريخية في التاريخ السياسي وتاريخ الملوك مهملين بذلك الجوانب الاجتماعية والفاعليين الحقيقيين في الحادثة التاريخية، هذا ما جعلها جزءا من فئات الظل المهمشة، بخاصة في ظل انغلاق المجتمع الجزائري، واعتبار كل ما يخص المرأة في إطار المسكوت عنه، وهذا راجع لذهنية المجتمع الذي يرى بأن كل ما يتعلق بالمرأة ضمن إطار الشرف الذي لا يتساهل الجزائري فيه (الحرمة)، وهذا ما يتضح جليا في الكتابات المحلية التي لم يصلنا منها حول المرأة سوى النزر القليل، لذلك ارتأينا في هذه المقالة التطرق لبعض الممارسات التعسفية التي عانت منها المرأة كنتيجة للسلطة الذكورية في ضوء الكتابات الكولونيالية التي درست كل ما يخص المرأة الجزائرية ليسهل عليها فهم النسق الفكري والسوسيوثقافي للمجتمع الجزائري لإحكام السيطرة عليه وإنجاح مشروعها الاستعماري، وعلى ضوء هذا سنحاول الإجابة على السؤال التالي: فيما تتجلى مظاهر الهيمنة الذكورية على المرأة في المجتمع الجزائري الحديث؟ وما هي صورتها في المخيال الذكوري؟ وإلى أي مدى مكّنتنا الكتابات الكولونيالية من التعرف على أوضاع المرأة الجزائرية في الفترة الحديثة؟

مظاهر الهيمنة الذكورية على المرأة في المجتمع الجزائري الحديث: أخذت الهيمنة الذكورية على المرأة في المجتمع الجزائري الحديث أشكالا عديدة تظهر جليا من خلال القوانين العرفية والعادات والتقاليد المجحفة في حقها، حيث وقفت أنوثتها حائلا بينها وبين حقوقها في المجتمع الذكوري الذي فرض عليها البقاء في الظل، وأوجد المبررات التي بموجبها أعطى لنفسه حق الوصاية على قراراتها والسيطرة عليها، ونحن هنا في معرض

PDF Creator Trial

الحديث عن بعض مظاهر الهيمنة التي تعرضت لها المرأة الجزائرية في الفترة الحديثة، والتي حالت دون بروز نخبة نسوية واعية ومثقفة نذكر منها ما يلي:

1- حرمان المرأة من التعليم: يعتبر التعليم هو العصب الأساسي في نمو ورقيّ كل المجتمعات منذ القدم وإلى يومنا هذا، وقد انتشر التعليم في الجزائر العثمانية بصفة كبيرة عبر كامل تراب البلاد، حيث لاحظ الفرنسيون عشية الاحتلال أنّ التعليم منتشر في الجزائر أكثر منه في فرنسا، نظرا للانتشار الواسع لمؤسسات التعليم المتمثلة في: الزوايا والكتاتيب والمساجد والمعمرات... إلخ.

ورغم انتشار التعليم على نطاق واسع، إلا أنّ المرأة الجزائرية لم تنل نصيبها منه عدا في حالات شاذة مثل تعليم بنات الأسرة العلمية والأسر المتنفذة، ومن أمثلة ذلك ما ذكره أبو راس الناصري أن أمه كانت في علمها كرابعة العدوية، والرحالة الورثيلاني المعروف بصوفيته الذي قال بأن إحدى زوجاته كانت تحفظ ربع القرآن، والثانية كانت تنسخ الكتب في حين كان لجده ابنتين كلاهما قامتا بنسخ كتاب "التوضيح"، إلا أنّ السواد الأعظم من النّساء كنّ يعانين من الأمية، وهذا راجع لحرمانهم من حقهم في التعليم، حيث أنهم كانوا يرون بأنّه من العيب تعليم المرأة واحتكاكها بالعالم الخارجي، إضافة إلى عدم اهتمام الحكّام بترقية مكانة المرأة حيث أنّ العثمانيين لم يبذلوا أيّ جهد في انتشار مؤسسات ومراكز علمية خاصة بالمرأة، وهنا يذكر الدكتور سعد الله أن:" ... لا شواعر ولا كواتب يسهمن في الحياة الثقافية وترقية الذوق الاجتماعي"[1]؛ فالمرأة إذن عانت من الجفاف الفكري نتيجة لتسلط الرّجال عليها؛ ففي العهد العثماني كان الجزائريون يخشون على نسائهم من جنود الانكشارية الذين غالبا ما يكونون في حالة سكر، وفي العهد الاستعماري زاد الرّجل من تضييق الخناق على المرأة خشية احتكاكها مع نساء الكولون، وخشية عليها من وحشية المحتل الغاشم، ومن هنا نخلص إلى أنّ سلطة الأب والأخ والزوج حاضرة لتكبّل المرأة في مجال التعليم بسبب الغيرة والخوف؛ فهم يرون بأن المرأة لن تستفيد من التعليم، وهذا ما عزّز تغييبها عن المسرح العام للأحداث[2].

لقد مسّ التعليم في أوساط المجتمع الجزائري شريحة الذكور دون الإناث اللّواتي حرمن منه منذ حداثة سنّهنّ، وكانت حجة الأهل في ذلك حفظ بناتهنّ وصيانتهن من

PDF Creator Trial

الاختلاط مع الجنس الآخر؛ فأنوثة الفتاة كانت سببا كافيا لحرمانها من ارتياد المدارس والكتاتيب، وأخذ ولو الأبجديات الأولية للتعليم[3].

بالرغم من أن السواد الأعظم من العائلات الجزائرية منعت بناتها من التعليم بحجة اتقّاء الفساد، إلا أن هناك البعض من العائلات حمل فيها الأب والأخوة على عاتقهم مسؤولية تعليم بناتهنّ من خلال تخصيص بعض الوقت لهنّ في الجلسات المسائية لتعليمهنّ سورتي الفاتحة والإخلاص، وكيفية الوضوء والصلاة. وهذا في محاولة منهم لتعريف الفتاة على أساسيات الحياة الدينية[4]، إلا أن خوف الأسرة الجزائرية من تعليم بناتها كان واضحا في الثقافة الشعبية للمجتمع الجزائري، ومن ذلك ما جاء في الأمثال الشعبية: "ما تعلم بنتك حروف ما تسكنها عروف"، وجاء في مثل آخر " لا تسكنوا نساؤكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة، واستعينوا عليهن بالعرى وعودوهن لا فإن نعم تجرؤهن"[5]. من خلال هذه الأمثال الشعبية نلاحظ أن تعليم الفتاة كان يعتبر من المحظورات في ظل انعزال الفتاة الجزائرية عن الأحداث العامة، وتعزيز فكرة عدم جدوى تعليم الفتاة.

ولكن هذا لا يعني عدم وجود أي محاولات لترقية مكانة المرأة، لكن نحن ذكرنا حالة السّواد الأعظم من النّساء اللواتي حرمن من التعليم في ظل الترسبات الاجتماعية القاضية بمنع المرأة من الخروج خارج البيت إلا لظروف قاهرة، وهنا نجد أن المرأة الريفية بحكم خروجها إلى البستان أكثر انفتاحا وحرية من المرأة الحضرية التي يعد المنزل هو الفضاء الوحيد بالنّسبة لها، ومنه يمكننا اعتبار حرمان المرأة من التعليم أهم عقبة وقفت في وجه ترقية مكانتها؛ فهي بأمّيتها لم تجهل التعليم فقط وإنّما جهلت طريقة الحياة، حيث بقيت مجرد أداة في يد الرّجل يحركها كيفما شاء، والملاحظ هنا أن سكوت المرأة عن حقها، وانقيادها التام زاد من حدة تفاقم الوضع؛ فالمعني لا يطالب بحقوقه، وبالتالي كان الصمت والخوف عاملا رئيسا في تكريس ذلك الوضع.

2- حرمان المرأة من الميراث: بالرغم من أن المجتمع الجزائري في غالبه يدين بالإسلام الذي شرع للمرأة حقها في الميراث، ونزل ذلك في سورة النساء (الآية 7 و الآية 11)، إلا أنّ هذه القوانين الشرعية تعرضت للتجاوز والتّحريف في أغلب مناطق البلاد، وبخاصة في إقليم زواوة حيث نصت القوانين العرفية هناك على منع المرأة من الميراث واحتكاره

PDF Creator Trial

للرجل، وهذا بموجب أمرية 1749م[6] أقرها إمام مسجد "ثاحمامت" بسوق السبت بنات واسيف؛ حيث اجتمع بأعيان المنظمة، وأجمعوا أمرهم على منع المرأة من الميراث، كما اعتبروا أنّ المرأة الماكثة عار على عائلتها، لذلك لا يحق لها التصرف في شيء، وحتى إن كانت المرأة لها الملكية المطلقة إلا أنّ التسيير يكون من قبل رجال عائلتها (الأب، الأخ، الزّوج)[7].

وقد تطرق مصطفى بن الخوجة لقضية ميراث المرأة القبائلية في كتاب "الاكتراث في حقوق الإناث"، وقد اعتبر ذلك خروجا عن الشرع والطبع، لا بل أكثر من ذلك فقد حكمت القوانين العرفية على من يسمح للمرأة بالتوريث بعقوبة مادية قدرت بخمسين ريالا، وهذا الحكم صرح به في قانون قبيلة "بني فرج"[8].

كما أن تفكير المرأة القبائلية الراسخ بأن الحفاظ على ترابط العلاقات الأسرية أهم لديها من المال كان السبب الرئيس في تخليها عن حقها الشرعي من الميراث، والتنازل عنه لإخوتها الذين هم في نظرها سندها في الحياة، كما أن الأعراف عززت لديها قناعة أن الميراث ليس من حقها؛ فهي إذن لم تكن لتطالب بشيء هي أساسا لا تعتبره حقها، كما أن تمجيد الجنس الذكري الذي يمثل بالنسبة لها مثال القوة ورجاحة العقل جعلها لا تناقش الموضوع، بخاصة وأن المال يذهب لأخيها الذي ترى فيه ملجأها وحاميها من نائبات الدهور، وبخاصة في حال تعرضها للمشاكل الزوجية، لهذا لم تحاول المرأة القبائلية معارضة القرار (أمرية 1749) والمطالبة بحقها، بل اعتبرت طلب الميراث عارًا، وهذا ما كانت النساء القبائليات تدعمه بالصمت عدة قرون، كما انتشر في الأوساط الاجتماعية بعض الأمثال الشعبية التي تؤكد على حتمية حرمان المرأة من الميراث نذكر منها:

حقك استلب- اغتصبه إخوتـــك- باعوك بثمن رخيص- تفاهم عليه الرجـال[9]

هذا المثل الشعبي هو تعبير صريح عن حال المرأة التي تتنازل عن حقها لأنها ترعرعت في مجتمع ذكوري جعل منها كائنا لا يستطيع الدفاع عن نفسه، كما أن خشيتها من قطع الروابط الأسرية مع أهلها (إخوتها) جعلها تتنازل عن الميراث في سبيل الحفاظ على اللحمة العائلية، لذلك اعتبرت المرأة التي تطالب بحقها في الميراث تجاوزت الحدود ودخلت في

PDF Creator Trial

دائرة العار؛ فمن المشين أن تكسر المرأة الطابوهات الاجتماعية، وتخرج عن العرف الاجتماعي السائد في محيطها.

لكن المحير في الأمر أنّ منطقة زواوة متمسكة بتعاليم الإسلام، ومعظم قوانينها العرفية مستقاة من القرآن والسّنة؛ إلا أن هذا القانون خارج تماما عن نطاق الشرع، وفيه هضم واضح لحق المرأة؛ لكنّه مطبّق على نطاق واسع، والملاحظ أن المرأة لا تطالب به بل وترى في ذلك عدلا؛ فإذا أرادت المرأة المطالبة بحقها في الميراث يعاب عليها ذلك حتى من بنات جلدتها، وهذا راجع لتأصّل الأفكار العرفية عندهم، وقد كانت حجتهم في ذلك الحفاظ على وحدة ملكية الأرض في سلالة واحدة؛ فتوريث المرأة يخرجها إلى سلالة جديدة (سلالة الزوج)[10]، وهذا ما يرفضونه إطلاقا في إطار ما يسمى بالانغلاق القبلي.

ولم تكن هذه الظاهرة محصورة في حيز جغرافي واحد بل تعدتها إلى كامل أرجاء المغرب الإسلامي، وهذا كسبيل للتحايل على الشريعة، حيث نجد بعض الآباء يُحبِّسون أملاكهم على أبناءهم الذكور دون الإناث، أو يقوم الوالد بتقسيم أملاكه قبل الوفاة على أبنائه الذكور فقط.

ويرجع هانوتو ولوتورنو (Hanoteau et letournaux) سبب منع المرأة من الميراث إلى عدم قدرتها على التحكم والسيطرة في الأراضي؛ فهي حسبهم عاجزة عن الدفاع عنها، وبالتالي لا يمكنها امتلاكها، ويضيف هانوتو أن المرأة التي ترث أباها تمنح ذلك الإرث لزوجها أو ينهبه منها عند انتهاء رابطة الزواج ويضيع حقها؛ حيث أنّها لا تستطيع استرجاع أملاكها منه، وبذلك فهي تتنازل عن حقها في الإرث لإخوتها للحفاظ على الرابطة الأسرية مع عائلتها[11].

3- اعتبار ميلاد المرأة شؤم: اعتبر ميلاد الأنثى فأل شؤم، حيث كانت الأسرة الجزائرية تستبشر بميلاد الذكر، وتعيش حالة همّ ونكد عند ميلاد الأنثى، وقد وصف دوماس (Daumas) حالة الأب الذي تعتريه مسحة من الحزن حيث يكتفي بقوله: "زادتني لعنة"[12]، وكمظهر لمواساة هذا الأب نجد أقاربه يقولون له: "لعل مهرها يكون مكسبا جديدا لك"[13]، وفي ذلك استغلال واضح للمرأة منذ ميلادها.

هذا عن حال الأب، أما الأم فهي تعتبر ميلاد الأنثى بمثابة تهديد لها في بيت الزوجية، ذلك أن المرأة تتعرض للّوم الشديد من قبل زوجها وعائلته، وتتّهم بعجزها عن إنجاب

PDF Creator Trial

الذكر الذي يحمل اسم عائلته، وهذا ما يعرضها للذل والهوان والخوف على مستقبلها، حيث أن ميلاد البنت غالبا ما ينجرّ عنه طلاق الأم، وسخرية المجتمع منها، وفي أحسن الأحوال إذا لم تطلّق فإن زوجها يعيد الزواج بغيرها ويعاملها معاملة سيئة، وهذا يدفع بالمرأة إلى أن تسلك عدة إجراءات سحرية وخرافية للزواج من أحد أقاربها من جهة الأب، وذلك لحفظ مكانتها عند عائلة زوجها، وحماية نفسها من الطلاق والإساءة، لأن زوجها لا يمكنه ذلك، وإذا فعل فسيتعرض للّوم من قبل كل أعضاء أسرته، وهذا في إطار الحفاظ على تماسك الأسرة الممتدة[14].

4- العنف الجسدي: ينحصر دور المرأة الجزائرية بعد الزواج في خدمة زوجها، ويصبح هدفها في الحياة إرضاؤه، وتتحمل منه كل أنواع الإهانة والتجاوزات في حقها حتى لا يتم تطليقها، وتصبح مثارا للسخرية إضافة إلى العوز الذي ستتعرض له في بيت أهلها في حال طلاقها[15]، وفي بعض المناطق الجزائرية مثل بلاد زواوة كان الضرب بمثابة عادة عندهم، حيث كان الرجل يضرب زوجته ضربا مبرحا باليد وأحيانا كثيرة كانت تتعرض للضرب بالعصا، بل الأكثر من ذلك فقد كان إخوة الزوج وأبوه يضربون المرأة، ويعتبرون ذلك حقا مطلقا لهم، وعلى المرأة أن تتحمل ولا تنطق ببنت شفة لأنّها إن فعلت ستتعرض حتما للطرد والطلاق، وهذا ما تحاول أي امرأة تجنبه مهما تعرضت للإهانات والتعسفات، أما أهل المرأة فهم لا يحتجون، لا بل إذا ذهبت الزوجة إلى بيت أهلها تشكو زوجها وأهله؛ فإنّهم يضربونها أيضا، ويعيدونها إلى بيتها، ويجبرونها على تحمّل شتى التجاوزات في سبيل عدم عودتها إليهم، لأن المجتمع الجزائري يعتبر طلاق المرأة وعودتها إلى بيت أهلها عار عليهم، ودليل على سوء تربيتها، وعدم قدرتها على تحمل المسؤولية، وتصبح بذلك تلك المرأة عالة عليهم، وتزيد حالتها سوءا أكثر مما كانت عليه؛ فخوف المرأة جعلها تصبر على مضرّات زوجها في صمت.

وفي إطار حماية المرأة لعائلتها، وخشية تشتت أولادها الذين غالبا ما يذهبون ضحية انفصال الأبوين؛ فإنّها تصبر على الأذى، بخاصة وأن الرجل يحق له الزواج متى شاء وممّن شاء، في حين أنّ المرأة وبخاصة في منطقة القبائل يتدخل زوجها الأول (طليقها) ويمنعها من الزواج حتى يقوم وليّها بإعادة المهر الذي دفعه لها، كما يحق له أن يطالب

PDF Creator Trial

من يرغب في طليقته أن يدفع له مبلغا من المال، ويكون في أغلب الأحيان تعجيزيا، وذلك لمنع حدوث الزواج الجديد.[16]

5- العنف النفسي: كما أنّ الأرملة تخضع لعادات عرفية غريبة، منها أنّه يمكن لأخ الزوج أو أحد أقاربه الزواج منها دون مهر، باستثناء مبلغ زهيد يدفع لأبيها، وإذا امتنع أقارب زوجها عنها فإنّهم يملكون حق الوصاية عليها، ولا يزوجونها إلا لرجل يختارونه، ويدفع مهرها لهم[17].

ويذكر شارل فيرو (Charles Féraud) عن منطقة القبائل أن أول من يضع برنوسه على أرملة مباشرة بعد وفاة زوجها تصبح زوجته دون الأخذ برأيها أو احتساب للعدة أو المهر، وفي ذلك تجاوز واضح في حق المرأة التي لا تملك حق الرفض أو الاعتراض على القوانين العرفية[18].

حيث يجري العرف في المجتمعات القبلية بأن الرجل إذا مات وترك زوجته؛ فإن أحد أقارب الزوج الذي يكون له حق إرثه يقوم بالزواج بأرملته، وصاحب الحق في معاشرة الأرملة هو عادة اقرب أقارب الزوج الميت؛ ففي المجتمعات البدوية كما هو الحال في منطقة القبائل يأتي في مقدمة الأقارب الذين لهم حق معاشرة الأرملة الابن والأخ؛ فإذا وجد للرجل ابن في سن الزواج خلفه على أرملته، وإذا لم يكن للميت أبناء أو كان له أبناء صغار انتقل حق الوصاية على الأرملة إلى القريب التالي، وحق الأخ في الوصاية على أرملة أخيه أكثر انتشارا.

إضافة إلى انتشار ظاهرة تطليق المرأة دون أي سبب يذكر، وبدون علمها أيضا؛ إذ يكفيه أن يعلن عن لفظ الطلاق أمام أصدقائه أو أمام شيخ القبيلة أو الإمام ليحصل على مبتغاه، وقد انتشرت هذه الظاهرة في كل الجزائر، ولكن تفاوتت حدّتها من منطقة إلى أخرى؛ حيث تقل في الناطق الحضرية، وتزيد في المناطق البدوية والأرياف وبخاصة منطقة القبائل والأوراس[19].

ويمكن أن يطلق الرجل زوجته أيضا بسبب الحلف (القسم، اليمين)، حيث يستعملون بعض عبارات القسم التي تحرم عليهم زوجاتهم، وهذا غالبا ما يكون في معرض كلامهم أو نقاشهم حول أمور عامة؛ فتصبح المرأة مطلقة في حين غرة دون أي

PDF Creator Trial

سبب يذكر لمجرد أنّ زوجها تلفظ بعبارة الطلاق، ومن هذه العبارات نذكر: "حارمة عليه كما حرمت مكة على اليهود"، كما يقوم الرجل أيضا بتطليق زوجته لأنها كبرت في السن[20].

6- استغلال المرأة في الأعمال الشاقة: كانت المرأة الجزائرية الحضرية تعيش حالة مترفة خالية من المتاعب إلى حد ما، على العكس من نظيرتها في الريف التي كانت تقوم بكل الأعمال الشاقة، ويتمّ استغلالها أبشع استغلال، وبخاصة في الأعمال الزراعية، وهي الأعمال التي كان يجدر بالرّجل القيام بها؛ لكن هنا نجد أن المرأة تعمل كلّ شيء، والرّجل كانت وظيفته هي الإشراف على الأعمال دون بذل أي جهد عضلي منه؛ فهي من كانت تقوم بالزراعة والحرث وحفر السّواقي لتسهيل عملية الريّ[21]، وقد لاحظ الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان أثناء مروره على عين تيموشنت وبسكرة النّساء والفتيات يحصدن بالمنجل والرجال واقفون مكتوفي الأيدي ينظرون إليهنّ، وهنّ يقمن بأعمال شاقة فوق طاقتهن، وهذا ما أثار تعجب الرحالة الذي استغرب الظاهرة[22].

إن الزوجة أو الفتاة تستخدم هنا كأداة للعمل في حين الرّجل يرى نفسه سيد المخلوقات، ولا يحط من منزلته للقيام بهذه الأعمال التي في نظره تعد من مهام الحمير والعبيد والنساء، كما أن الفتاة كان يتم اختيارها للزواج على أساس قوتها البدنية، حيث في أغلب الأحيان يقوم الشيخ أو العجوز بتزويج ابنهم بفتاة لها قوة حيوان واحتمال الحصان، هذا لأن المرأة كانت هي المحور الرئيسي والعنصر الأساسي في كل الأنشطة المنزلية والحرفية والاقتصادية سواء في البيت أو الحقل[23].

ونظرا للاستغلال المفرط الذي تعرضت له المرأة الجزائرية فقد لاحظ القاصي والداني ذلك، وهذا ما تطرق له المؤرخ بن يامين قاستينو (Benjamin Gastineau)، الذي اعتبرها كائنا مسلوبا إرادته ومنتهكا حقوقه في ظل المجتمع الذكوري الذي تترعرع فيه الفتاة منذ نعومة أظافرها على الانقياد والخضوع لإرادة الرجل، حيث يصف الجزائر بقوله: "إنّ الجزائر لها الصحراء والواحات، البحر والجمال، لها السماء الصافية الرائعة على الدوام، أرض خصبة وغابات من البلوط والفهود، منابع باردة ومياه معدنية حارة، وخيول تحسدها عليها كل أوروبا، محاجر من الرخام، ومناجم من الذهب والفضة

PDF Creator Trial

والحديد والرصاص، الجزائر لها كل هذه الفضاءات وهذه الثروات، كل هذا الجمال، لكن ليس لديها امرأة"[24].

وبما أنّ نشاط المرأة يفوق أحيانا قدرتها الجسدية، هذا ما جعلها عرضة للأمراض والجراثيم، ولكن هذا لم يمنعها من مواصلة أعمالها على الرغم من الإرهاق والمرض، إلا أنها لم تتوقف عن أداء واجباتها[25]، حيث كانت مدة عملها في المنزل والحقل تفوق 18 ساعة يوميا، وهذا من أبشع صور الاستغلال الذي كانت تتعرض له[26].

7- صورة المرأة في المخيال الذكوري: ينظر الرجل للمرأة نظرة دونية، ولطالما دلت تصرفاته معها على الاحتقار، وهذا في نظره الطريقة السليمة للتعامل مع هذا الكائن الناقص والمليء بالمكر والخداع حسبهم، والأكثر من ذلك؛ فهم يؤوّلون النصوص الشرعية حسب أهوائهم، ويحاولون إضفاء الشرعية على سلوكاتهم اللا إنسانية في حق المرأة؛ فهم يرون في الحِجبة بأنها العقاب الذي تستحقه المرأة، لأنها يجب أن تبقى بعيدة عن مسرح الأحداث العامة؛ فهي إذا تدخلت في أمر فإنها تفسده، كما أنهم يجعلونها كائنا تابعا للرجل لا وجود لها في معزل عن هيمنته، ويعتبرونها ناقصة عقل لذلك كان وجود الرجل ضروريا ليكمل النقص الذي يعتريها فطريا؛ فالرجل يرى أن المرأة مسلوبة العقل، وأن عقلها لا يشتغل إلا للمكر والخداع، وقد انتشرت الكثير من الأمثال الشعبية التي يتحجج بها الرجال في عدم ثقتهن بالنساء منها:

لا في الجبل واد معلـــوم
ولا في الشتـــا ريـــح دافي
ولا في العدو قلب مرحوم
ولا في النســـا وعـــد وافي

كما أن الرجل لا يثق في آراء زوجته، وقد انتشر في الأوساط الشعبية مثل يقول: "شاور مرتك ودير رايك" أو "شاور مرتك وخالف رايها"؛ فالمرأة غالبا لا يؤخذ برأيها لأنها دائما ما تفكر بالسوء، وطريقة تفكيرها خطأ، ومن يأخذ برأي زوجته فهو إنسان جاهل أو مسحور حسبهم لذلك يطلقون عليه المثل القائل: "طاعة النسا تدخل للنار"؛ فالرجل لا يطيع زوجته إلا إذا كانت قد سحرته، ونظرا لاعتقاد الجزائريين بالقوى الغيبية والسّحر فهم دائمي الشك في زوجاتهم، وهذا راجع لتمرسهنّ في السّحر، لذلك تقوم

PDF Creator Trial

بعض العائلات بحبس نسائهن في البيت، ولا يسمح لهن بالخروج إلا في حال الضرورة القصوى. كان الجزائريون يشبّهون المرأة بالثعبان لذلك وجب حبسها وحِجبتها خوفا من دهائها ومكرها؛ فالمرأة في المنظومة الذكورية الجزائرية مخلوق لا أمان له؛ لذلك كان لزاما عليهم الاحتراز منها، وأخذ الاحتياطات اللازمة لدرء خطرها والقضاء على جموحها[27].

لقد لعبت الثقافة الشعبية دورا محوريا في تشكيل شخصية الفرد الجزائري، وهذا ما ظهر لنا جليا من خلال صورة المرأة في المخيال الذكوري الذي بنى أحكامه على أفكار مسبقة تستقي أساسها من الأمثال والتراث الشعبي الذي هو غالبا يعبر عن تجربة شخصية؛ إلا أن طبيعة تداوله في الأوساط الاجتماعية جعلت منه حادثة جماعية اصطبغت بطابع القدسية، وهذا ما جعل المرأة تتعرض في الغالب للظلم الاجتماعي جراء الأحكام الجزافية التي سلطت عليها.

8- التزويج القسري للفتاة الجزائرية: في غالب الأحيان يقوم ولي الفتاة بتزويجها صغيرة السن، وهذا تماشيا مع المنظومة الاجتماعية السائدة آنذاك؛ حيث أن الفتاة في سن الثانية عشر مثلا تكون مكتملة النضج، وقادرة على تحمل مسؤولية الزواج، وسيرا مع الأعراف فإنه يتم اختيار زوج لهذه الفتاة دون الأخذ برأيها أو مشاورتها في الأمر بالرغم من أنه يعنيها بالدرجة الأولى، إلا أن طبيعة المجتمع الذكوري يجعلها ترضخ لخيارات الأهل دون أي مناقشة أو اعتراض؛ فالملاحظ هنا أن المرأة الجزائرية انحصرت مهمتها في الحياة على إرضاء كل المحيطين بها، وبخاصة منهم الذكور الذين لهم عقدة الحل والربط في حياتها (الأب، الأخ، العم، الزوج وعائلته وحتى الابن لاحقا)[28].

غالبا ما تتم المصاهرات حسب الطبقات الاجتماعية؛ فالأشراف يفضلون أن يزوجوا بناتهم لعائلات شريفة ذات نسب، وهكذا دواليك عند الأعيان والتجار والأسر الحرفية، وهذا العرف سائر في كل مناطق البلاد تقريبا. هذا ما يغلق مجال الاختيار لدى الفتاة، وحتى الشاب أحيانا يجد نفسه مرغما على الزواج من فتاة معينة تقوم عائلته باختيارها له دون علمه[29]؛ فالمنظومة الاجتماعية الذكورية غيبت المرأة تماما، وسلبتها حق الاختيار في كل ما يخص حياتها من أكبر التفاصيل إلى أدقها.

تعتبر المرأة في المغرب العربي عامة عورة وغير قادرة على تدبر أمورها، وقاصرة تماما أمام فكر الرجل لذلك فهي تحرم حق الاختيار، وفي إطار الحرمة والغيرة فرضت عليها

PDF Creator Trial

الحجبة للحفاظ على شرفها، وهذا فيه وأد للثقة في كينونتها وتصرفاتها؛ فالصورة الذهنية النمطية المرسومة حول المرأة بأنها كائن غير قادر على تحمل مسؤولية صنع القرار، وينفي عليها الرشاد على اعتبار أنها ناقصة، وهو ما سلب منها كل حقوقها وجعلها آلة يتحكم فيها الرجل[30].

ويذكر الرحالة والطبيب الانجليزي توماس شو (Thomas Shaw) أن الفتاة الجزائرية تتزوج صغيرة جدا حيث أنها في سن الحادية عشر تصبح أماً، وفي سن العشرين جدة[31]، هذه الظاهرة لاحظها شو في القرن الثامن عشر، وبقيت مستمرة لفترات متأخرة خاصة في المناطق الريفية، حيث كانت الفتاة التي تصل لسن العشرين ولم تتزوج عالة على أهلها ومعرّة لها.

ونظرا لما تعرضت له المرأة من اضطهاد؛ فإنها كانت تعبر عن ذلك القهر والظلم من خلال نشاطاتها المنزلية، ولعل صناعة النسيج كانت متنفسا لها للتعبير عما يختلج في صدرها؛ فالزربية تعد رسما لصورة واقعية عن محيط المرأة؛ فهي تجسد العائلة والعادات والتقاليد...، ويعد موضوع التعامل مع الرجل (الأب، الأخ، الزوج، العم، الخال، الابن) من أكثر الأفكار التي عالجتها الناسجات، بخاصة وأن صنع الزربية كان حكرا على المرأة، لذلك كان النسيج عالما خاصا بها للتنفيس عنها من خلال رسوماتها. لقد أصبح النسيج عبارة عن قلم المرأة ولسانها في ظل التغييب والهيمنة التي تعرضت لها في إطارها الاجتماعي[32].

خاتمة:

- المنظومة الاجتماعية للمجتمع الجزائري حالت دون بروز نخبة نسوية، في ظل الهيمنة الذكورية، واعتبارها تابعا للرجل، ولا وجود لها خارج النسق الذي رسم لها.
- وقف الجهل والأمية حائلا بين المرأة وحقوقها؛ فهي لم تستطع تجاوز القيود التي ترعرعت عليها، كما أنها لم تسع لترقية مكانتها أو الخروج من بوتقة الأمية.
- على الرغم من أن للمرأة حقها في الميراث شرعا إلا أن الأعراف تجاهلت النصوص الشرعية، وحرمت المرأة من حقها في الميراث، وهذا ما يعتبر صورة من صور الظلم الاجتماعي، ونظرا لشيوع هذه الظاهرة فحتى المرأة لم تطالب بحقوقها، واعتبرت كل من تفعل ذلك أنها تجاوزت حدود الحياء والحشمة في المجتمع.

PDF Creator Trial

- لقد ظهرت منذ القدم بعض التجاوزات في حق المرأة الجزائرية، وعانت من الاستغلال المفرط باعتبارها كائنا خلق لخدمة الرجل فحسب، وما زاد وضعها سوءا رضوخها وعدم وجود محاولات جادة لترقية مكانتها، والدفاع عن حقوقها، لذلك استمرت هذه الوضعية لفترات طويلة من الزمن.

- عانت المرأة في الحوض الغربي للمتوسط بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة التهميش، وهذا راجع للنسق الاجتماعي الثقافي والمنظومة الفكرية الذكورية المهيمنة على المجتمع، حيث لم تكن هذه الأفكار وليدة الصدفة أو تغير اجتماعي طارئ، وإنما تحصيل حاصل لترسبات ضاربة القدم تمسك بها السكان في إطار الحفاظ على الموروث الثقافي الموسوم بالعادات والتقاليد والأعراف، حيث يعتبر الخروج عنها من ضروب التمرد على ثوابت المجتمع غير القابلة للتحريف أو التغيير حتى أنهم حوّروا النصوص الدينية مع ما يتماشى وأعرافهم الاجتماعية.

- على الرغم من الضبابية التي خيمت على وضع المرأة الجزائرية في الفترة الحديثة إلا أنّه ظهرت هناك بعض النماذج النسوية التي أبانت عن نضج فكري ووعي سياسي وثقافي، وهو ما خوّلهن للريادة في أوساطهن، وكن ذوات مكانة، ولهن عقدة الحل والربط حتى في وجود الرجال، وقد سجلت لنا المصادر التاريخية صفحات مشرقة حول نماذج نسوية تخلصت من الهيمنة الذكورية، وكانت ذات نفوذ سياسي وعسكري وديني، ولعل أبرز هذه الشخصيات التي خلد التاريخ أعمالها نجد عزيزة باي، وأم هاني بنت رجب باي شيخة العرب، وعلجية بن بوعزيز بن ناصر، وزينب الهاملية... وغيرهن من النساء اللواتي ظهرن في فترات زمنية وظروف مختلفة، والعامل المشترك بينهن هو قوة التأثير.

الهوامش:

*الهيمنة الذكورية: نظرية جاء بها "بيار بورديو**"ونشر أفكاره في كتاب بنفس الاسم، وكان المجتمع القبائلي في الجزائر نموذجا لدراسته، وأنجزه في ستينيات القرن العشرين، ويتلخص بحثه في أن ظاهرة الهيمنة الذكورية ظاهرة عالمية لكنّها تتسع وتضيق من مجتمع لآخر، وهذا نظرا للنسق السوسيوثقافي المكون لذهنية المجتمعات البشرية. أنظر: بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر. سليمان قعفراني، مر. ماهر تريمش، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، أفريل2009، **بيار بورديو: ولد في قرية دنغيون الفرنسية في عام 1930م، التحق بالمعهد الباريسي معهد لويس العالي، حاز على إجازة في الفلسفة عام 1955م، ثم انتقل إلى الجزائر لتأدية الخدمة العسكرية إلى 1960م حيث أرغمته حرب التحرير على العودة لفرنسا (تعرض للتهديد بالتصفية الجسدية)، درس الفلسفة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. واحتك مع المجتمع القبائلي الذي فتح له بؤر تفكير جديدة حول الرأسمال الثقافي في المجتمعات البدائية. للمزيد أنظر: بركات عمار، سؤال الإيديولوجيا والدراسات الاستشراقية الأنثروبولوجية في الجزائر: أنموذجا ألفرد بال وبيار بورديو،سلسلة محاضرات الملتقى الدولي بن أبي شنب والاستشراق، منشورات مديرية الثقافة لولاية المدية،الجزائر، 2014،ص102-104.----1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط6، دار البصائر، الجزائر،2009،ج1ص336. ----2- نفسه، ص337.

3– M.Bernard: Ali et Aicha, livre de lecture courante en arabe parlé, Dessins de V Fulconis, Oran, 1906,p.08.

4- جوزيف ديسبارمي، الفوايد في العوايد والقواعد والعقايد، مطبعة السيد مورقان، البليدة، 1905، ص29.

PDF Creator Trial

5- Mohamed ben Chaneb : Proverbes arabes de l'Algérie et du Maghreb, Recueillis traduits et commentes, Paris, ErnestLeroux, 1906, P.246,247.

6- للإطلاع على النص الكامل لأمرية 1749 أنظر:

F. Patorni: Délibération de l'année 1749 dans la grand Kabylie, R.A, V.39, Alger, 1895, p.315. 7- Souad Ben Djaballah: L'accès des femmes a la propriété foncièté; le cas de l'Algérie, Tunis, 2000, p.179.

8- محمد بن مصطفى بن الخوجة الجزائري، الاكتراث في حقوق الإناث، مطبعة بيار فونتانا، الجزائر،1895، ص30.

9- MASQUERAY. Emile : Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie, Kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aurès, Beni Mezab, Ed Ernest le Roux, Paris 1866,P.25.

10- حياة قارة، النّساء في فضاء البحر الأبيض المتوسط، دار أبي رقراق، الرباط، 2011، ص24.

11- هانوتو ولوتورنو، منطقة القبائل والأعراف القبائلية، تر: مخلوف عبد الحميد، دار الأمل، الجزائر، 2013، ج.2 ص287.

12- Daumas: Mœurs et coutumes de l'Algérie: Tell- Kabyles- Sahara, Paris, 1853,6.

13- Jules Maistre: Mœurs et coutumes Kabyles, imprimerie de la manufacture de la charité, 1905,p.36.

14- Ouitis (A): Les Contraditions Sociales Et Leur Expression Symbolique Dans Le Setifois, S.N.E.D,Zirout Youcef ,Alger, Alegria,p.75.

15- سيمون بفايفر، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر. أبو العيد دودو، ط2، دار هومة، الجزائر، 1984، ص140. ----16- هانوتو ولوتورنو، المصدر السابق، ص288. ----17- نفسه.----18- شارل فيرو، تاريخ جيجلي، تر. عبد الحميد سرحان، ط1، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص39.----19- مسعودة كمال، مشكلة الطلاق في المجتمع الجزائري (دراسة ميدانية حول عينة من المطلقات في الوسط الجزائري)، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص68. ----20- جوزيف ديسبارمي، المصدر السابق، ص113.----21- هانوتو ولوتورنو، نفسه، ج1 ص610.----22- مالتسان هاينريش فون، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، تر. أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ج2 ص44.----23- يوري سوكولوف، الفولكلور قضاياه وتاريخه، ط2، تر. حلمي الشعراوي و عبد الحميد حواس، مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة، 2000، ص75.

24- Benjamin Gastineau: Les femmes et les mœurs de l'Algérie, collation hatzel, libraire de Michel lévy frères, Paris, 1868, p.05.

25- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تق وتع وتح. محمد العربي الزبيري، منشوراتANEP، الجزائر، 2006، ص36.

26- Warnier: L'Algérie devant le sénat, imprimerie de Dubuisson, Paris, 1863, p.55.

27- جوزيف ديسبارمي، المصدر السابق، ص179،75،74.----28- خالد هرابي، الخطاب النسوي في النسيج القيمة الجمالية و1الأبعاد الدلالية للزربية، دار سحر للنشر، 2006، ص57، 58.

PDF Creator Trial